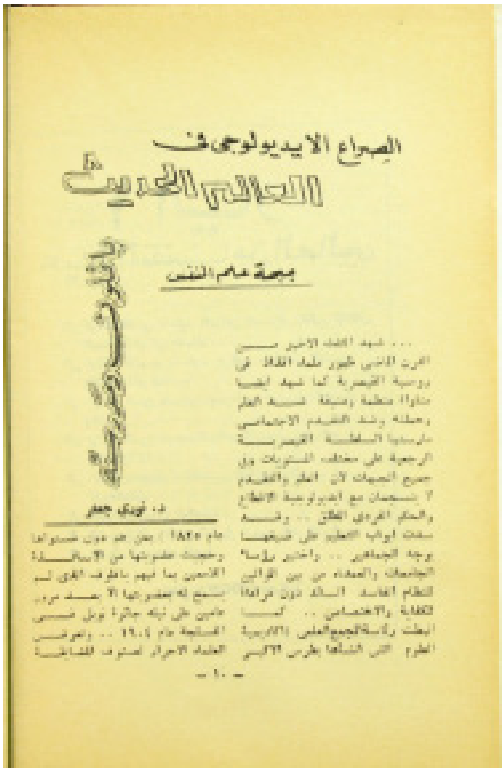
المؤلف : جعفر، نوري، 1914-1991، مؤلف.

العنوان : الصراع الايديولوجي في العالم الحديث : جبهة علم النفس : بافلوف ومدرسته / د. نوري جعفر.

بيانات النشر : بغداد، العراق : [الناشر غير محدد]، 1971.

الوصف المادي : صفحة 10-17

الموضـــــوع : متضمن في (عمل) : الثقافة : مجلة الفكر العلمي التقدمي : شهرية ثقافية عامة العدد 4 (ايار 1971)


الصراع الايديولوجي في العالم الحديث

جبهة علم النفس

بافلوف ومدرسته

د. نوري جعفر

— ١٠ —

الصراع الايديولوجي في العالم الحديث

جبهة علم النفس

بافلوف وسيجموند فرويد

د. نوري جعفر

... شهد الثلث الاخير من القرن الماضي ظهور علماء افذاذ في روسية القيصرية كما شهد ايضا مناواة منظمة وعنيفة ضد العلم وحملته وضد التقدم الاجتماعي مارستها السلطة القيصرية الرجعية على مختلف المستويات وفي جميع الجبهات لان العلم والتقدم لا ينسجمان مع ايديولوجية الاقطاع والحكم الفردي المطلق .. وقد سدت ابواب التعليم على ضيقها بوجه الجماهير .. واختير رؤساء الجامعات والعمداء من بين الموالين للنظام الفاسد السائد دون مراعاة للكفاية والاختصاص .. كما انيطت رئاسة المجمع العلمي (اكاديمية العلوم التي انشاها بطرس الاكبر عام ١٨٢٥) بمن هم دون مستواها وحجبت عضويتها عن الاساتذة اللامعين بما فيهم بافلوف الذي لم يسمح له بعضويتها الا بعد مرور عامين على نيله جائزة نوبل في الفسلجة عام ١٩٠٤ .. وتعرض العلماء الاحرار لصنوف المضايقة

هذه فقرات من مقدمة كتاب تحت الطبع ننشرها بمناسبة وفاة بافلوف في مثل هذا الوقت قبل خمسة وثلاثين عاما لنختتم بها هذا الجانب من جوانب البحث تمهيدا للانتقال الى جبهة العلوم الفيزيائية

*

والاضطهاد .. وتعذر على الكثيرين منهم ايجاد عمل محترم يخدمون فيه انفسهم وبلادهم والمعرفة العلمية . وكان بافلوف اسعدهم حظا لانه شهد انهيار النظام الفاسد تحت اقدام الشعب .

لعب الاساتذة والطلاب التقدميون الجامعيون دورا ايجابيا في الحركة الثورية التي اخذت بالتعاظم في روسية القيصرية منذ الثلث الاخير من القرن الماضي والتي اتسع نطاقها في التسعينات منه بفضل تعاظم الحركة الثورية العمالية المستندة الى الاخطار الماركسية وانتشار الآراء العلمية وبخاصة نظرية النشوء والارتقاء .. وكانت الحكومة القيصرية تقف بالمرصاد لكل نشاط يبديه الاساتذة والطلاب التقدميون على الصعيد السياسي وفي المجال العلمي الصرف ايضا وذلك لعوامل ايديولوجية بالدرجة الاولى ولصيانة النظام التبري .. من ذلك مثلا ان رئيس اكاديمية بيتروفيزكي تسلم في اواخر مايس ١٨٨٢ كتابا رسميا من وزير الاملاك الحكومية ينبؤه باسف القيصر عندما قرا عبارات وردت في احدى برقيات « الوكالة الدولية للانباء » مفادها ان طلاب هذه الاكاديمية ارسلوا برقية تعزية الى ارملة داروين بمناسبة وفاة قرينها . وان على رئيس الاكاديمية تقديم توضيح مفصل عن هذا الامر الخطير لرفعه الى « السدة الملكية » .. كما ان عالم الاحصاء غريازيف تعرض للملاحقة وسخط الجهات الموعونة

لانه ترجم فحوى البرقية من اللغة الروسية الى الانكليزية .. ومارس القيصر نيقولا الثاني حكما ارهابيا « قاسيا » تعرض فيه التعليم والثقافة لشتى صنوف المضايقة والامتهان . فصدر عام ١٨٢٥ نظام جديد للجامعات قضى على جميع مظاهر الاستقلال النسبي الذي نالته بجهود المخلصين من ابنائها وبالتضحيات عام ١٨٠٤ . ثم اعقب هذا النظام الصارم نظام اخر اشد صرامة منه في عام ١٨٤٨ يقضي بعزل المثقفين التقدميين الجامعيين عن زملائهم الذين ساهموا في حركات التحرر الاوربية عام ١٩٤٨ . ولم تكتف السلطة القيصرية الجائرة بما ذكرناه بل اوغلت في اجراءاتها التعسفية فاخضعت الجامعات لاشراف وزارة المعارف المباشر للتفتيش وذلك بتعليمات عام ١٨٤٨ وزادت أجور الدراسة والغت كثيرا من مواد المناهج وامرت باجراء فحص دقيق لنشاط كل طالب جديد يسجل في احدى الجامعات . كل ذلك اطلق يد وزير المعارف للعبث في شؤون التعليم العالي فيما يتصل بتعيين اعضاء الهيئات التدريسية وترقيتهم واقصاء غير المرغوب منهم وتعيين رؤساء جدد للجامعات وعمداء للكليات واقرار مناهج الدراسة والتصديق حتى على عدد محاضرات الاساتذة وجداول دروسهم الاسبوعية . هذا بالاضافة الى اقصاء الكثيرين منهم لعوامل سياسية وايديولوجية .. كما زادت السلطة المسؤولة من اجراءاتها القاسية ازاء نشاط الطلبة التقدميين واخذت تحصي عليهم انفاسهم الوطنية وتطردهم بالجملة ولمجرد الشك .. فطردت مثلا في عام ١٨٨٧ (٣٩٤) طالبا من جامعات موسكو وقازان وسانت بطرسبورغ (بتروغراد بعد ذلك ثم لننغراد) وفي عام ١٨٩٩ اصدرت الحكومة ما سمته « الاجراءات المؤقتة » التي تقضي بحرمان الطلاب المضربين من مواصلة الدراسة وتسجيلهم في الخدمة العسكرية .. وقد طبق هذا في عام ١٩٠١ على جامعة كييف فشمل ١٨٣ طالبا من ابرز طلابها .

وقف العلماء الروس التقدميون في حقل التعليم وخارجه موقف المساند المشجع العاطف على حركات الطلاب التقدميين وشجبوا موقف السلطة المتعسف .. واستقال ١٢٥ عضوا من اعضاء هيئة تدريس جامعة

موسكو عام ١٩١١ احتجاجا على الاجراءات الصارمة التي اتخذها وزير المعارف كاسو والتي وضعت الجامعات تحت سيطرة الشرطة .. كما وقفوا ايضا في الحقل العلمي المحض بصلابة ضد جميع تعبيرات الآراء اللا علمية العتيقة وبخاصة في مجال الفلسفة والعلوم البايولوجية لعوامل علمية وسياسية وايديولوجية ولوحظ ان نشاط العلماء التقدميين في مجال البحث العلمي الخالص الذي كان حتى نهاية القرن الماضي ذا صبغة تربوية اكاديمية قد تحول ايضا منذ بداية القرن العاشر الى اداة سياسية وايديولوجية وذلك لان انتشار العلم بين اوسع الجماهير يجعلها تنظر الى الكون والمجتمع والانسان نظرة موضوعية ويحررها من جميع اشكال الفكر المتعفن الذي ينشره بينها ايديولوجيو القيصرية، كما ان العلم يشجع الجماهير على التفكير السليم عند معالجة شؤونها الاجتماعية ويعاونها على اكتشاف مركزها الحقيقي في كفاح القوى الثورية ضد قوى الرجوع الى الوراء .. تلك هي نظرة العلماء التقدميين مهمة العلم الآنية الملحة وبخاصة بنظر غورازيف عالم النبات المشهور ، ويبدو ان اقتران العلم بالديمقراطية اتخذاك كان غرضه اتخاذ العلم وسيلة لخدمة جماهير الشعب في كفاحها السياسي والايديولوجي ضد الحكم الفاسد ، اتضح ذلك باجلى اشكاله في كتاب غورازيف « العلم والديمقراطية » الذي نشره عام ١٩٠٤ .

في هذا الجو الرهيب نشأ فالوف وترعرع ومارس نشاطه العلمي .. وسار طوال حياته العامة والمهنية في العهد القيصري المظلم في طريق شاقة .. وقد نظرت السلطة المسؤولة بازدراء الى ابحاثه الفسلجية وكثيرا ما كانت توسعه بعض اللوم على « تجاربه الفظة » التي يجريها على الحيوانات تحت ستار « الرفق بالحيوان » في الوقت الذي كانت تدوس الشعب فيه باقدامها الغليظة .. وكان موجهو القيصرية يشجعون « سيدات الصالونات » على اهانته في الحانات العامة .. وحالت الجهات المسؤولة دون نجاحه في انتخابات رئاسة الجمعية الطبية وحرمته من الحصول على اللقب العلمي الذي يستحقه واستثنته من الحصول

على مستكرحكومي وحرمت مساعديه من نيل الدرجات العلمية التي يستحقونها ولم تسمح له عضوية اكاديمية العلوم الا في عام ١٩٠٦ بعد حصوله على جائزة نوبل بعامين .. كل ذلك لم يحل دون مواصلة ابحاثه العلمية .. وبخاصة ارتباك شؤونه المعاشية التي تفاقم منذ زواجه عام ١٨٨١ ومع ذلك فانه كان ينفق ما كان يحصل عليه من مكافآت ضئيلة للاغراض العلمية الصرفة رغم حاجته الماسة الى المال . وترد لنا في هذه المناسبة حوادث طريفة منها مثلا ما ذكر جيستوفيج احد طلابه عندما اتفق مع بعض زملائه على مساعدة بافلوف ماليا في حدود امكانياتهم الضئيلة وبشكل لبق لا يسيء الى كبريائه العلمي فجمعوا مبلغا متواضعا ثم دعوا بافلوف لالقاء سلسلة محاضرات يشرح فيها نتائج ابحاثه . وعندما انتهى من القائها قدموا له المبلغ ليغطي به نفقات البحث . غير انه بدلا من ان يستعمله لسد بعض حاجاته المعاشية انفقه على شراء كلاب جديدة وادوات مختبرية ... ومن ذلك ايضا قوله الشهير لاحد رجال الاعمال الروس عندما حاول هذا الاخير اقناعه بتشغيل المبلغ الذي ناله لقاء جائزة نوبل في الامور التجارية : « لم انل هذا المبلغ بالتجارة بل بفضل ابحاثي العلمية فكيف تطلب الي ان انفقه على غير الوجه الشرعي الذي حصلت فيه عليه » وانفقه بالفعل على شراء المعدات المختبرية . ومن الطريف ان نشير هنا الى ان بافلوف عندما وصل الى استكهولم لتسلم جائزة نوبل ابدى الملك السويدي اوسكار الثاني رغبة في استقباله على انفراد ليتعرف عليه لما بلغه من كفاياته العلمية النادرة . وبعد المقابلة ظهر على العاهل السويدي ما يدل على عدم ارتياحه من المقابلة فسأله احد المقربين عن سبب ذلك فاجاب انه مع اعجابه بالعالم الفذ الا انه تضايق كثيرا من بساطته وخلوه من الاوسمة واللباس الرسمي وهذا دليل على انه « اشتراكي » !.

... يعبر بافلوف عن افضل مزايا الشعب الروسي الذي احبه من اعماقه واكتسب منه اوضح سماته واكثرها اصالة .. فلقد اتصف بالبساطة والتواضع وبكثرة الاهتمام بالاخرين .. وكانت مختبراته يسودها جو الاحترام

التبادل والصداقة .. وكان عميق الاثر في الذين سعدوا برؤيته من الشخصيات البارزة مثل اتش جي ويلز الكاتب البريطاني الذي قابله عام ١٩٢٢ واثنى عليه بكلمة نشرها في جريدة نيويورك تايمس في ٢٣–١١–١٩٢٧ وقد عرف عنه اتباع النظام العسكري الصارم في تنظيم وقته بين المختبر والمنزل وقاعات الدرس . ولم يذكر عنه مطلقا انه جاء متأخرا دقيقة واحدة عن الوقت المحدد لاجراء التجارب حتى اثناء المعارك في شوارع سانت بطرسبورغ في عام ١٩٢٧ . وقد واصل عمله في اقسى ايام الشتاء بردا واثناء الليل البهيم وفي ظروف انتاجه رديئة مصدرها احيانا مصباح الزيت والشموع وندرة الوقود والطعام .. واتصف بالدأب والمواظبة بشكل اصبح بمستطاع المرء ان يضبط وقت ساعته عند حضور بافلوف المختبر صباح كل يوم . وقد عنف بمرارة احد مساعديه لتأخره عشر دقائق تقريبا عن موعد اجراء احدى التجارب في الوقت الذي كان فيه ازيز الرصاص يلعلع في شوارع مدينة سانت بطرسبورغ في احد ايام ١٩١٧ .

... احتضنته العهد السوفيتي الصاعد منذ نشوئه كما تحتضن الام الرؤوم طفلها الوحيد وهيأ له امكانيات متواصلة ومتزايدة للبحث والعمل الكريم رغم الصعوبات الكبيرة والكثيرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي خلفتها الحرب الامبريالية الاولى واعمال التخريب التي مارسها في الداخل خصوم الشعب وكنتيجة للحروب الاهلية والحصار الاقتصادي والغزو المسلح الذي قامت به الاوساط الامبريالية ممثلة في الدول الاربعة عشرة الكبرى انذاك بمبادرة من تشرشل وزير بحرية بريطانية وكليمنصو رئيس وزراء فرنسة . ومع ذلك فقد اعيد بناء مختبراته وازداد الاهتمام به وصدر مرسوم خاص في ٢٤–١–١٩٢١ وقعه لينين تضمن تهيئة جميع الوسائل الممكنة لمساعدته على مواصلة ابحاثه وشكلت لجنة عليا ذات صلاحيات واسعة برئاسة مكسيم غوركي للقيام باقصى ما يمكن من السرعة لتهيئة افضل الظروف اللائقة لاستمراره على مواصلة ابحاثه المختبرية .. كما صدر امر ادارة التموين لتزويده وزوجه ببطاقات مواد غذائية

مختبري في السهرات الحارة بحضرة
مستضيفين أكاديميين .. وجهاء أمر
آخر موجه الى سوفييت بتروكراد
ـ سانت بطرسبورغ سابقا ولنتغراد
بعد ذلك ـ ان تضمن لبافلوف
الاستمرار في اشغال مسكنه طوال
حياته وان تجهز مختبراته بجميع
الاجهزة العلمية اللازمة ..

ان نشاطات الفسلجي المختبري
اثناء حياته العلمية التي بلغت زهاء
٦٥ عاما ثلاث مراحل متكاملة من
ناحية اسلوب البحث ومن حيث
المعطيات النظرية .. كانت اولاهما
دراسة فسلجة الدورة الدموية
التي استمرت حوالي ١٥ سنة ،
والثانية دراسة فسلجة الهضم التي
استمرت هي الاخرى زهاء ١٥ سنة
ايضا ، ثم دراسة المخ التي
استمرت طوال ٣٥ عاما توقفت بعدها
نبضات قلب هذا العالم الفذ ...
وادت الى نشوء نظريته الخالدة
في تفسير طبيعة الحياة العقلية عند
الانسان وحطمت الى الابد الاراء
اللاعلمية التي تسربت الى الفسلجة
وعلم النفس والطب من الفلسفة
المثالية ومن الدارونية الممسوخة
وعبرت بأوضح شكل ممكن عن
اصالة تفكيره واضافت الى المعرفة
العلمية اضافات رائعة تتعلق بأسرار
المخ الانساني الذي هو ارقى
مستويات تطور المادة في حركتها
التصاعدية البايولوجية والاجتماعية
على حد سواء . ونددت بالتجريب
المختبري الصلة وعلى الصعيد
الفكري الايديولوجيا اللاعلمية التي
تحدرت عبر التاريخ والتي تجعل
العلم والثقافة وقفا على عدد ضئيل
من الناس .. واثبتت للمرة الاولى
في تاريخ العلم الطبيعي ان الجماهير
هي صانعة التاريخ في حقل الثقافة
التقدمية والعلم والفن الانساني
الرفيع بالاضافة الى انها تصنع
التاريخ في حقل الانتاج المادي وفي
النضال الثوري التقدمي ، وفندت
ايضا خرافة اعتبار الحروب ظاهرة
بايولوجية ضرورية .. وتركت اثارا
هائلة في حقل الطب والتعليم
والباثولوجيا وفي تفسير نشاط
الجهاز العصبي المركزي والنوم
والاحلام ..

... لا يستطيع الباحث ان
يتمعن بدقة واستيعاب منجزات
بافلوف على الصعيدين الاكاديمي
والايديولوجي الا اذا نظر اليها في
ضوء ارضيتها التاريخية .. ويلوح
ان مسألة الانتقال في دراسة طبيعة

الانسان من وجهة النظر القديمة اللاعلمية الى وجهة نظر بالفوارق لا تقل في تطور العلم من مسألة التحول من وجهة نظر بطليموس عن الارض ومركزها في الكون الى النظام الذي اكتشفه كوبرنيكس . .

وكما انه من غير الممكن بعد كوبرنيكس ان تعود المعرفة الفيزيقية الى خزعبلات المنجمين فانه ليس ممكنا ايضا ان يحدث شيء مشابه بالنسبة لطبيعة الخ التي وضع اصولها بافلوف العظيم .

● نداء اتحاد النقابات العالمي ●

بمناسبة اول ايار

بمناسبة اقتراب يوم اول ايار وجه اتحاد النقابات العالمي نداءا الى شغيلة العالم اجمع دعاهم الى الاعراب عن التضامن مع شعوب فيتنام وكمبوديا ولاووس والمطالبة بانسحاب القوات الامريكية من الهند الصينية انسحابا تاما وفوريا والاعراب عن مساندة الشعوب العربية المناضلة ضد العدوان الاسرائيلي

ودعا اتحاد النقابات العالمي كذلك الى التضامن مع شغيلة وشعوب البلدان التي لا تزال ترزح تحت نير الاستعمار والعنصرية والتعرض الى الاضطهاد من جانب الانظمة الفاشية والمناضلة في سبيل الاستقلال الوطني

واكد اتحاد النقابات العالمي في ندائه بمناسبة اول ايار بانه يحيي شغيلة البلدان الاشتراكية الذين يشيدون بنجاحاتهم في بناء المجتمع الجديد كذلك الذين يناضلون في سبيل بناء مجتمع متحرر من الاستغلال والاضطهاد .